النظر المقاصدي في تفسير العارف بالله أبي الحكم عبد السلام بن برّجان اللخمي الأندلسي (ت 536هـ) –الزهراوان نموذجا–

The Purposeful Standpoint in the Interpretation of the Sufi Abu al-Hakam Abdul Salam ibn Barjan al-Lakhmi al-Andalusi (d. 536 AH) - Al-Zahrawan as a Model

د. سعدوني سهيلة*

جامعة أبي بكر بلقايد /تلمسان

Souheyla83@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2024/08/16 تاريخ القبول 2024/12/02 تاريخ النشر 2024/12/17

ملخص

تحفل هذه الدراسة الموسومة بـ: " النظر المقاصديّ في تفسير العارف بالله أبي الحكم عبد السلام بن برّجان اللخمي الأندلسي (ت 536هـ) –الزهراوان نموذجا–" تحفل بالنتاج المقاصديّ المرتبط بآيات وأحكام الاعتقاد على وجه التخصيص عند الفقيه المفسّر الشيخ الواصل ابن برّجان رحمه الله، المبسوط بتصريحه والمفهوم من قبضه وتلويحه ما أسعفتنا الشواهد إلى ذلك سبيلا، توسّلا بتفسيره المسمّى " تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم وتعرّف الآيات والنّبأ العظيم". حيث وقفنا على الألفاظ والمعاني التي استخدمها في نظره المقاصديّ، بغية بيان التئامها واتّصالها بالخطاب القرآني من جهة وبضوابط الفهم عن الله من جهة أخرى. وقد كشف البحث عن منظومة مقاصديّة متكاملة عند ابن برّجان في تفسيره تقوم على بيان وجوه الحكمة في تدبّر القرآن الكريم ابتداء، وبيان وجوه العلّة في انتخاب المعاني التوسّمية في تفسيره لآيات الاعتقاد انتهاء.

* المؤلف المراسل

الكلمات المفتاحية: ابن برجان؛ التفسير؛ النظر؛ المقاصد؛ الزهراوان .

Abstract:

The study titled "The Purposeful Standpoint in the Interpretation of the Sufi Abu al-Hakam Abdul Salam ibn Barjan al-Lakhmi al-Andalusi (d. 536 AH) - Al-Zahrawan as a Model" is rich with the purposeful outcomes related to the verses and rulings of Islamic belief. These outcomes are expounded explicitly and implicitly as far as the evidence allows, in his interpretation book (Tafseer) named "Tanbih al-Afham ila Tadabbur al-Kitab al-Hakim wa Ta'aruf al-Ayat wa al-Naba' al-Azim." In this study, we examined the words and meanings he used in his purposeful viewpoint to clarify their coherence and connection with the Quranic discourse and the conditions of understanding from Allah. The research revealed a unified purposeful structure in Ibn Barjan's interpretation, which aims to elucidate the aspects of wisdom in reflecting upon the Quran at the outset and to explain the reasons for selecting the intuitive meanings in his interpretation of the verses of belief at the conclusion.

key words: Ibn Barjan, interpretation, viewpoint, purposes, Al-Zahrawan.

مقدّمة:

يتجلّى النظر والتدبّر في القرآن العظيم عند الصوفية كرحلة جهاد متواصلة نحو كشف أسرار الوجود ومعرفة صفات وأسماء الله تبارك وتعالى، فالتدبّر الصوفيّ استنطاق عقلي، فلسفي ووجدانيّ للنصوص القرآنية الجليلة بحيث يقترن هذا الاستنطاق بضوابط وقواعد التفسير المتفق عليها وحتى المختلف فيها. هكذا دأب السادة الصوفية العالمين العاملين العارفين بالله على التفكّر في كلام الباري عزّوجلّ، فهو– أي التدبّر– عندهم عملية نظر تعمّق الوعي بالحقيقة الجوهرية للآيات، إذ يقرأ الصوفي القرآن بعيون القلب ويستمع له بأذن الروح، مستشعراً كل كلمة كنبضٍ كونيٍ يتردد في أرجاء الوجود. من خلال هذا التأمل العميق، يندمج السالك مع المعاني والمرادات الإلهية، فيغدو كل حرفٍ صوتاً من أصوات الحقيقة، وكل جملةٍ تحرّكٌ على طريق الفناء في المحبة الإلهية.

وفي أعماق آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن مسائل الإيمان والغيبيات، يجد الصوفي كنوزاً من الحكمة الإلهية والحقائق الروحية التي تفتح له أبواب المعرفة اللّدنية، تقود المؤمن إلى جوهر الإيمان وتكشف له عن سر العلاقة بين الخالق والمخلوق. فالإيمان في منظور الصوفي ليست مجرد تصديق

بالقلب و إقرار بالعقل واللسان، بل هي تجربة سلوكية وجودية روحية عميقة، في هذا السياق، يصبح الإيمان بالله شهود دائم للحضور الإلهي في كل شيء. وهو عنده –أي الصوفيّ– دعوة للتسليم المطلق لإرادة الله وحكمته فيغدو خرق العوائد عنده معهودا لا تعجّب فيه، ويتطلّع إلى الحياة الآخرة بكل شوق ومحبة. وعليه، فإنّنا نجد أنّ العلاقة بين تدبّر آيات وأحكام الإيمان في القرآن الكريم وبين عملية التعليل قائمة حاضرة عند الصوفيّ، إذ مقاصد آي القرآن تتجاوز حدود ظاهر النصوص لتدلف إلى ما وراءها من المعاني والمدلولات، لتنبعث بذلك الحكمة اللدنية والمعرفة الباطنية عند أهل السلوك.

نقف–في هذه الدراسة– على أحد أبرز علماء التفسير والعقيدة والتصوّف في تاريخ الأندلس، وبالرغم من قلّة الدراسات عنه وندرة المراجع حوله، إلا أنّ أبا الحكم بن برّجان اللّخمي (ت536هـ) يفرض نفسه بعد قرون ويكشف عن فكره المقاصديّ باسطا أكفّ المقامات والواردات في تفسيره المسمّى " تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم وتعرّف الآيات والنّبأ العظيم".

ووجب التنويه إلى صعوبة واجهتنا في هذا العمل وهو أنّ قراءة هذا التفسير الموزون لأبي الحكم رافقتها قراءة أخرى مقابلة لها في كتاب موسوم بـ"إيضاح الحكمة بأحكام العبرة" تقديم جرهارد بوورينغ Gerhard Böwering ويوسف كاسويت Yousef Casewit. حيث أنّ كتاب الإيضاح نوع آخر من التفسير عند ابن برّجان وأقوال أخرى لم يبسطها في التنبيه، الأمر الذي يستحضر لدى الباحث تشوّفا وتوقا إلى الوقوف على المعاني والحكم البرّجانية. إلاّ أنّنا توكّلنا على الباري عزّوجلّ ونظرنا بطرف خجول في الرؤية المقاصدية لأبي الحكم في معرض تفسيره للزهراوين البقرة وآل عمران، وحاولنا استقصاء الألفاظ والمعاني التي اعتمدها ابن برجان في تفسيره للآيات المرتبطة بالغيبيات على وجه الخصوص، وكيفية انتظامها في عملية التعليل التزاما بضوابط الفهم عن الله وتطبيقا لقواعد العدول عن الظاهر كما يراها هو.

ولسنا نزعم استخراج التوسمات البرّجانية لجميع الآيات الواردة في الزهروابن، فهذا مشروع بحثي يحتاج إلى فريق عمل لوفرة المعاني والأقوال في تفسير التنبيه، وإنّما نقدّم محاولة يسيرة ونعرض بضاعة مزجاة إذ انتخبنا بعضها كنماذج تضيء درب الباحثين الذين يرغبون في الوقوف على فكر ابن برّجان ومنهجه وفلسفته.

خطة الدراسة:

المحور الأوّل: أبو الحكم بن برّجان وكتابه " تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم وتعرّف الآيات والنّبأ العظيم"

المحور الثاني: الجهاز الاصطلاحي عند ابن برجان.

المحور الثالث: شروط الفهم عن الله في تفسير ابن برجان.

المحور الرابع: وجوه العلّة في انتخاب التوسّمات الإيمانية في تفسير الزهراوين.

المحور الأوّل: : أبو الحكم بن برّجان وكتابه " تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم وتعرّف الآيات والنّبأ العظيم"

1-مولده وحياته:

ابن بَرَّجَان: بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء وبعدها جيم وبعد الألف نون. مخفّف من ابن أبي الرَّجّال.[1] هو أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن برّجان. هذا الجدّ. وحفيده: أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن محمد بن برّجان: الإمام العابد الصالح اللغوي النحوي له مؤلفات في النحو وردّ على أبي الحسن بن سيّده. وبين أغلاطه الواقعة في "المحكم"- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده-، وله استلحاقات كثيرة على اللغويين،. توفي سنة 627 هـ.[2] وقد جعل شمس الدين الذهبي الحفيد هو الابن . وقال الفيروزآبادي هو الحفيد[3] وقال ابن الزبير الغرناطي أنّه ابن أخيه. [4] ولم يصل إلينا شيء من نقد الحفيد على ابن سيّده. وابن برّجان الجدّ – موضوع دراستنا- هو الشيخ العلاّمة العارف شيخ الصوفية القدوة اللخمي المغربي الأفريقي ثمّ الأندلسيّ الإشبيلي. ولم تذكر كتب التراجم سنة مولده.

كان من إماما من أهل المعرفة بالقراءات والتحقيق في علم الكلام والتصوّف مع الزهد والاجتهاد في العبادة. وكان له معرفةٌ بالحديث وتقدُّمٌ في الطِّب[5]،سَمِعَ (صَحِيْح البُخَارِيّ) مِنْ: أبي عبد الله محمد بن منظور صاحب أبي ذرّ الهرويّ، وحدّث به. وروى عنه: أبو القاسم القنطريّ، وأبو محمد عبد الحقّ الأزديّ، وأبو عبد الله بن خليل القيسيّ الإشبيلي ، وأَبُو بكر بن أبي الحكم اللّغَوِيّ الأديب المعرف بِابْن المرخي، وأبو الحسين سليمان أحمد بن سليمان اللّخميّ؛ وآخرون. [6]

أمّا عن أحواله ومكانته ومنهجه في العلم، فنستمع إلى الغرناطيّ يصفه في الصلة بأنّه "كان عالما ماهرا – إماما في كل شيء، لا يماثل بقرين، مشاركا في علم الحساب والهندسة وغير ذلك، قد أخذ من كل علم بأوفر حظ مؤثر لطريقة التصوف وعلم الباطن(...) عارفا بمذاهب الناس ومتقيدا في نظره

بظواهر الكتاب والسنة ، بريئا من تعمق الباطنية بعيدا عن قحية الظاهرية ، شديد التمسك بالكتاب والسنة ، جاريا في تأويل ذلك على طريق السلف وعلماء المسلمين ، وما عليه السواد الأعظم ، ثم مبدئا من وجوه التأويل وفهم آيات التنزيل ما يجري مع المعروف ولا ينافر المألوف، من غير تعارض ولا مخالفة، بل مما يشهد المنصف العارف أنه من فضل الله الذي يؤتيه من يشاء (...) وكان يؤثر اعتزال الناس والبعد عنهم ويختار الخمول، ويعمّر أوقاته بما يرجو فيه التخلص والقبول، وقد امتحن رحمه الله وتخلّص بلطف الله..."[7]

ويقول عنه العمري: "كاشف أسرار، وكاسف بدور من غير سرار، ولم يزل للشبهة متوقيا، وعلى الشهب مترقيا، حتى تمثل الدقائق، وترفل الحقائق، وشرب من العلم اللّدنيّ، وقطف من الفهم الجني، وأترعت له الحياض فارتوى من موردها وزوى عن موردها، فأبرز الخفايا وأخرج الخبايا(...) فكربت أضداد له كادوا يتحملون ، وكربت حساد له وباطل ما كانوا يعملون ."[8]

وقد ذكرت كتب التاريخ والتراجم وكذا مدوّنات التصوّف محنة أبي الحكم التي أشار إليها العمري، إذ جرى له ما جرى مع السلطان وأعوانه، إذ عاش رحمه الله في ظلّ الدولة المرابطية التي بوّأت الفقهاء مكانة عليا وأحرقت كتبا في الزهد والرقائق والتصوف ككتب الغزالي، وفحوى المحنة أنّ بعض الفقهاء والحساد سعوا به إلى السلطان سعاية باطلة واتهموه بالبدعة والزندقة، "فأشخص أبو الحكم من قرطبة إلى حضرة مراكش وسئل عن مسائل عيبت عليه، فأخرجها على ما تحتمله من التأويل ، فلم يقبلوها. وقال أبو الحكم: "والله لا عشت ولا عاش الذي أشخصني بعد موتى ! يعني السلطان" . فمات أبو الحكم . فأمر السلطان أن يطرح على المزبلة ولا يصلى عليه وقلد فيه من تكلم فيه من الفقهاء . فدخل على ابن حرزهم رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجلسه فأخبر أبا الحسن بما أمر به السلطان في شأن أبي الحكم . فقال له أبو الحسن : إن كنت تبيع نفسك من الله فافعل ما أقول لك . فقال : مرني بما شئت أفعله . فقال له : تنادى في أسواق مراكش وطرقها : يقول لكم ابن حرزهم : احضروا جنازة الشيخ الفاضل الفقيه الزاهد أبي الحكم بن برجان ؛ ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعليه لعنة الله ؛ ففعل ما أمره به . فبلغ ذلك السلطان . فقال : من عرف فضله ولم يحضر فعليه لعنة الله ."[9]

إنّ محنة ابن برّجان وحياته وعلمه وتعليمه وصداقته بابن العريف الصنهاجي (ت536هـ) وعلاقته بثورة المريدين التي قادها ابن قسي وغيرها من أحداث الدولة المرابطين والدولة الموحدية، لا يزال كلّ هذا يسيل الحبر وينتج الدراسات الأكاديمية في العقدين الأخيرين–حسب اطّلاعنا– ولكن لا تزال

هناك كثير من الأسئلة مفتوحة لم تجد إجابات وافية ولم تسعفنا كتب التاريخ والتراجم التي وقفنا عليها.

2- تفسيره "تنبيه الأفهام..." وأقوال العلماء فيه

ألف – رحمه الله – كتبا كثيرة لم يصل إلينا منها إلاّ القليل. والذي وقفت عليه منها هي مطبوعة محققة: "شرح الأسماء الحسنى" ، " تنبيه الأفهام.." ، "إيضاح الحكمة بأحكام العبرة". أمّا كتابه في التفسير –موضوع بحثنا– " فقد جرى فيه على طريقة لم يسبق إليها، واستقرأ من آيات عجائب وكوائن من الغيوب، إلا أنه أغمض في التعبير عن ذلك، فلا يصل إلى مقصوده إلا من فهم كلامه، وألف إشارته وإلهامه." [10]

وقد ارتبط تفسيره قصة تأويل ابن برجان لآية (غلبت الروم) وكيف حسب حسابا نتيجته تحرير بيت المقدس في السنة التي ذكرها بالضبط. وسمها ابن كثير ب" نكتة غريبة" ونقل مضمونها من كتاب الروضتين لأبي شامة شهاب الدين المقدسي حيث ينقل هو الآخر كلاما للسخاويّ المقرئ في تفسير له–أي تفسير السخاوي– لم يصل إلينا يعرّض بابن برّجان ويتّهمه بالتنجيم. يقول: " قَالَ السَّخَاوِيُّ: (...) فَبَنَى الْأَمْرَ عَلَى التَّارِيخِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُنَجِّمُونَ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ يَغْلِبُونَ فِي سَنَةِ كَذَا، وَيُغْلَبُونَ فِي سَنَةِ كَذَا، عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ دَوَائِرُ التَّقْدِيرِ(...) وَهَذِهِ نَجَامَةٌ وَافَقَتْ إِصَابَةً، إِنْ صَحَّ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ قَبْلَ وُقُوعِهِ، وَكَانَ فِي كِتَابِهِ قَبْلَ حُدُوثِهِ، قَالَ: وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَبِيلِ عِلْمِ الْحُرُوفِ، وَلَا مِنْ بَابِ الْكَرَامَاتِ ; لِأَنَّهَا لَا تُنَالُ بِحِسَابٍ. وَقَدْ ذَكَرَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَدْرِ أَنَّهُ لَوْ عَلِمَ الْوَقْتَ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ لَعَلِمَ الْوَقْتَ الَّذِي يُرْفَعُ فِيهِ."[11]

وورد في التراجم أنّ أبا زكريا يحيى بن أبي الْحَجَّاج اللبلي استخرج من تَفْسِير أبي الحكم بن برجان من كَلَامه على سُورَة الرّوم فتح بَيت المقدس فِي الْوَقْت الَّذِي فُتح فِيهِ على الْمُسلمين، وحقق عين مَا كَانَ أغمض فِيهِ ابْن برجان وَأبْهم.[12] وكذلك فعل أبو المعالي محمد محيي الدين بن زكي الدين " فعندما فتح السلطان صلاح الدين مدينة حلب، يوم السبت 18 صفر، سنة 579هـ ، أنشده القاضي محيي الدين المذكور قصيدة بائية كان من جملتها بيت متداول بين الناس، وهو: وفتحك القعلة الشهباء في صفر ... مبشرّ بفتوح القدس في رجب. وكان كما قال، فإن القدس فتحت في رجب سنة 583هـ، وقيل لمحيي الدين: من أين لك هذا فقال: أخذته من تفسير ابن برجان في قوله تعالى: (ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين).[13]

ويحكى عَن أبي القاسم عبد الرَّحْمَن بن ناجر الفيضي الْمَقْدِسِي الْمصْرِيّ الأديب وَكَانَ من الْفُضَلَاء وأعيان الأدباء بِمصْر أَنه قَالَ: يسْتَخْرج من تَفْسِير أبي الحكم بن برّجان مَا يحدث إِلَى يَوْم الْقِيَامَة."[14] وشكّك ابن خلكان في هذه القصة قائلا: " ولما وقفت أنا على هذا البيت وهذه الحكاية لم أزل أتطلب تفسير ابن برجان حتى وجدته على هذه الصورة، لكن كان هذا الفصل مكتوبا في الحاشية بخط غير الأصل، ولا أدري هل كان من أصل الكتاب أم هو ملحق به، وذكر له حسابا طويلا وطريقا في استخراج ذلك حتى حرره من قوله بضع سنين." [15]

ولقد تأثّر أرباب السلوك والمفسرون بابن برّجان وبما كتبه في كتبه لاسيما التفسير، ومن هؤلاء نذكر: محيي الدين بن عربي المعافري [16]، عبد القادر الجيلاني[17]، القرطبي[18]، الزركشي،[19] وأكثر من ذكره وذكره تفسيره الإمام البقاعي[20] وآخرون. غير أنّ هذه العناية به وبتفسيره لم تمنع بعض العلماء من الأخذ عليه وعلى تفسيره.[21]

المحور الثاني: الجهاز الاصطلاحي في تفسير ابن برجان.

يُعدّ الجهاز الاصطلاحي في تفسير ابن برّجان من العوامل الأصليّة المحرّكة لمنظومة التدبّر المقاصديّ عنده، إذ تعكس منهجه الفريد والعزيز في التعامل مع النصوص العقدية القرآنية. وبصفته عالماً صوفياً ومقرئا مفسراً، استخدم مجموعة من المصطلحات التي عبّر بها عن رؤيته العميقة للمعاني الإيمانية والروحية التي سعى إلى إبرازها في تفسيره.

وقد رأينا ضرورة انتخاب بعض المصطلحات التي لها صلة بالموضوع، لتكون توطئة لما سوف نفصّل فيه إن شاء الله تعالى في ثنايا البحث. وقسمناها باعتبار المجال المعرفي الذي انشغل ببيانه في التفسير كالآتي:

1- المصطلحات اللغوية:

أ- النظم والمجاورة:

المقصود بالمجاورة في اللغة "التعبير بالمجاور عمّا جاوره، وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للّفظ المذكور مجاورا للمعنى المجازي. وقد أهمل البلاغيّون هذه العلاقة لأنه بالإمكان الاستغناء عنها إما بعلاقة المحليّة، وإما باللازميّة والملزوميّة."[22] مثال ذلك: " "شككت بالرمح ثيابه"، فلفظ "ثيابه" مجاز مرسل علاقته ما بين الجسم والثياب من المجاورة التامة, والقرينة قوله: "فشككت" إذ المراد بالشك الطعن وهو إنما يكون في الأجسام، لا في الثياب. وممّا علاقته المجاورة إطلاق اللفظ على المعنى، أو

العكس, تقول: فهمت اللفظ، وتريد معناه، وقرأت المعنى، وتريد اللفظ؛ وذلك لشدة ارتباط الدال بالمدلول. ومنه إطلاق الظن على العلم، أو العكس؛ لتقاربهما في المعنى، فهما متجاوران."[23]

وأمّا النظم في القرآن الكريم فقد تكلم فيه علماء الكلام والمفسرون كثيرا " فمنهم من بالغ ومنهم من قصر... وهو كنظم أعضاء الجسد أو كأي منظر من مناظر الكون، فهو أحسن الخالقين، لا ترى في خلقه من تفاوت وان كررت النظر ورجعت البصر مرارا، وليس لنا إلا أن نجيل أفكارنا وعقولنا في معرفة حكمته... لقد أحكم الله نظم القرآن، وجعل في معانيه انسجاما، حتى أن كل آية أو سورة صغيرة تراها منظومة في سلك غاياته، ولها علاقة قوية في التوجيه إلى الغرض الأسمى الذي هو نفع الناس الشامل ومصلحتهم العامة وفلاحهم في الدارين..."[24]

وقد استخدم ابن برّجان كثيرا كلا المصطلحين في معرض تفسيره لآيات العقيدة ونضرب مثالا على ذلك بآيتين:

الأولى: قوله تعالى: " **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)**" [آل عمران: 7]

يقول ابن برّجان: *" ولما قد أعلمنا بما في علم الراسخين في العلم من القصور عن علم أكثره والعجز عن بلوغ الكنه منه، نظم به (يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) أي: ما علمناه منه وما لم نعلم في كلا الوجهين، قد ذكر - عز وجل - المعنيين معًا من الطريقين في قوله جلَّ قوله حاكيًا عنهم ابتهالهم: (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)..."* [25] فدلالة "نظم به" في قول ابن برّجان تُشير إلى معنىً مُركب يجمع بين الإيمان بالمعلوم والإيمان بالمجهول في كتاب الله تعالى. وهي تفيد الترتيب والانسجام والترابط بين المعنيين بحيث لا تناقض ولا إشكال؛ وبالتالي يكون النظم في هذه الآية وجه من وجوه الإعجاز القرآنيّ.

الثانية: قوله تعالى: {**قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ**}(**97**) يقول ابن برّجان: "*... جاء أنهم قالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لولا أن الذي يأتيك بالوحي هو جبريل لاتبعناك ، قالوا : لأنه يأتي بالعذاب وهو عدونا من الملائكة ، فأنزل الله جلَّ ذكره (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ) المعنى إلى آخره*

. والأولى أنه منتظم بحكم المجاورة مما تقدم ذكره من كراهتهم الموت أنه جاء أن المؤمنين يدفعون إلى جبريل – عليه السلام – بعد الموت ، كالكافل لهم إلى يوم..."[26]

يتحدّث ابن برّجان في هذا الاقتباس عن سبب نزول الآية الكريمة (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ...) و الذي يتعلّق بعداوة اليهود لجبريل عليه السلام. ، يقول ابن برّجان أنّ الأفضل والأكثر منطقية هو أنّ عداء اليهود لجبريل عليه السلام مرتبط بالسياق السابق الذي تحدّث عن كراهية اليهود للموت. بمعنى آخر، معنى قوله "والأولى أنه منتظم بحكم المجاورة" هو أنّ الحديث عن عداء اليهود لجبريل بسبب أنّه يأتي بالعذاب يمكن فهمه بشكل أحسن وأفضل إذا نظرنا إليه في إطار قرب السياق مع كراهيتهم للموت فالمعنيين متقاربين (الموت والعذاب)، مما يجعل هذا الربط أكثر منطقية وتناسقاً.

ب–تقدير المحذوف:

الحذف ظاهرة لغوية ثابتة وموجودة، ولا يكون إلاّ بشروطه وعلاقته بسياق الحال؛ بغية الاختصار والإيجاز الذي هو أصل بلاغيّ، ويكون في الجملة الاسمية والفعلية. ويراد به: حذف ما يمكن الاستغناء عنه من الألفاظ لداع يقتضيه. وهو جائز بشرطين: الأوّل: أن يوجد دليل أي قرينة قولية أو حالية تدلّ على المحذوف، ومكانه؛ لأَنَّ عدم معرفة المحذوف يفسد المعنى فسادًا كاملًا، وعدم معرفة مكانه يؤثِّر في المعنى قليلًا أو كثيرًا. والثاني: ألّا يترتّب على الحذف إساءة للمعنى، أو إفسادٌ في الصياغة اللفظِيَّة.[27]

وقسم أبو الهلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت395هـ) المجاز إلى قسمين: إيجاز القصر وإيجاز الحذف، وعرف إيجاز القصر: بأنه: تقليل الألفاظ وتكثير المعاني. وأما إيجاز الحذف: فهو أن يحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه، وأن يوقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما، ويضمر للآخر فعله، أو أن يأتي الكلام على أنّ له جواباً فيحذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب، كذا حذف جواب القسم: و حذف (لا) من الكلام...الخ[28]

وقد جعل أبو الفتح عثمان بن جنى (ت 392هـ) موضوع الحذف "شجاعة العربية"، و قصد بذلك أن الشاعر أو الأديب إذا ترك ما هو الأصل في الكلام، وهو الذكر وتجشم الحذف – بعد أن ينصب له قرينة تدل عليه، أو تدل عليه الحال – فهو إنما يعمد إلى ذلك لثقته التامة في معرفته بأسرار اللغة، وتمكنه من امتلاك ناصيتها، فاللجوء إلى الحذف، وإلى غيره مما ذكره ابن جنى مظهر من مظاهر الشجاعة في اللغة العربية![29] أمّا ابن برّجان فقد اعتنى بالمحذوف في القرآن الكريم وعمل

على تقديره من أجل فهم كامل للنصّ وبيان المعاني الخفيّة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر نموذجين من تفسيره:

الأوّل: في قوله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}** (**30**)يفسّر ابن برّجان سؤال الملائكة بأنّه سؤال من ملائكة العذاب لا من ملائكة الرحمة، إذ " *تلقّى كلا الفريقين من كلامه العلي ذكر الخلافة على هذا النحو(...) فقالت ملائكة العذاب: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) وهذا منهم على وجه التكبّر منهم على الخلائف الذين سبق إليهم علمهم، وعلى وجه طلب العلم من ربهم – جلّ جلالُه – وتعالى علاؤه وشأنه. تقدير ذلك: ربّنا، أتجعل فيها من تخلقه وترزقه وتحييه وتميته وتجازيه بفعله، وتحسن إليه فتحفظه وتكلؤه وتمكّنه وتملكه، وهم يكفرون بك ويكذبون رسلك ويردّون عليك أمرك وكتبك، ويفسدون في الأرض ويسفكون دماء الآمرين بالقسط لهم من الناس، كيف هذا؟ وما وجه الحكمة في إيجاد هؤلاء؟ وكيف يكون وجود مثل هذا منهم مع وجود ما يوجب ضده؛ (...) ثم هنا محذوف من حال المقال ما هو تمام الكلام، تقديره والله أعلم: لأن أمرتنا ربنا بأمرك فيهم لنهلكنّهم بإذنك، ولئن وليتنا عذابهم لننتقمنّ لك منهم حنقًا عليهم من أجلك وعداوة لهم فيك، ثم عطف كلام الأولين من الملائكة – عليهم السلام – بالواو. وقوله: (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) أي: مكان من لم يسبحك منهم، ونعبدك عوضًا من عبادتهم، (...) ثم قالوا: (وَنُقَدِّسُ لَكَ) أي: ونقدس لك عبادك المؤمنين؛ أي: نلهمهم ذكرك ونبلغهم وحيك ونلقي إليهم أمرك، ونشفع لهم عندك وندعوا لهم (...)إلى آخر المعنى حيث وقع ذلك من شأنهم.*"[30]

في هذا النص، يشرح ابن برّجان دواعي سؤال ملائكة العذاب لله دون ملائكة الرحمة الذين – حسب تفسيره– لم يشتركوا في السؤال؛ وتتمثّل هذه الدواعي في التكبّر، أي أنّهم شعروا بنوع من التعالي على هذا الجنس الذي سيسفك الدماء ويفسد في الأرض، وكذلك في الاستعلام عن المراد، أي كانوا يريدون فهم حكمة الله في خلق مثل هؤلاء البشر الذين يرتكبون الشرور. فقدّر محذوفات هي:

-المحذوف الأوّل : (كيف يمكن أن تخلقهم وترزقهم وتحفظهم وتمنحهم القوة والملك، وهم في المقابل يكفرون بك ويرفضون رسلك وكتبك ويفسدون في الأرض؟ فما الحكمة من خلقهم وهو يفعلون خلاف ما يجب أن يفعلوه من الطاعة والعبودية لله؟)

-المحذوف الثاني: وهو أن الملائكة كانوا مستعدين لتنفيذ أمر الله في معاقبة هؤلاء البشر انتقاما لهم منه وبغضا لهم في الله إن أمرهم بذلك.

-المحذوف الثالث: وهو في مقابل المحذوف الثاني، مفاده: (و نقدّس عبادك المؤمنين؛ نلهمهم ذكرك، ونبلّغهم وحيك، ونلقي إليهم أمرك، وندعو لهم ونشفع لهم عندك.

وبالتالي، يقترح ابن برّجان أنّ هناك أشياء مضمرة غير مذكورة في النص القرآني يمكن تقديرها لفهم السياق بشكل أفضل، ومن خلال تقديراته للمحذوفات يمكن القول أنّه استخدم عدة قرائن مثل: قرينة السياق العام للنص، القرينة اللغوية في الاستفهام الاستنكاري والتعجّب، القرينة النحوية في واو العطف المقتضية للمغايرة في قوله (ونقدّس لك)، التعليل في سؤال الملائكة، القياس والاستدلال في المقارنة بين الخلق الذي سبق البشر وبين البشر...الخ. هذه القرائن مجتمعة ساعدت ابن برّجان على تكوين صورة كاملة ومفصلة عن الحوار الذي دار بين الله والملائكة بشأن خلق الإنسان.

الثاني: في قوله تعالى: **{إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ}(271)** [البقرة: 271]

يقول ابن برّجان: "*بقوله جل قوله وهو أعلم : إن تبدوا الصدقات ليتأسى بكم ويُقتدى بأفعالكم فنعما هي، وهي أفضل على هذا الشرط، ومتى عُرّيت الصدقة من ابتغاء فضيلة الاقتداء ألَّا يكون إلا لأهل العزم والقوة الموصوفة بالأمانة فالإخفاء أسلم وأقرب إلى العافية ، وعطف بالواو ، وقوله : (وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ) على المعنى الذي في قوله (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) وهو التزكي والتقرب . وتقدير المحذوف ، والله أعلم : (وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) أي : أقرب إلى السلامة مع ما يطهركم بها ويزكيكم . عطف بقوله جلّ قوله ؛ (وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ) موضع العلانية هو الفريضة ، وموضع السر هو النافلة ، إلا ما رجحته معاني القرب الموجبة للقرب ورضا الله تعالى ورفعة الفضيلة .*"[31]

يناقش ابن برّجان في هذه الفقرة مسألة إخفاء الصدقات، ويشرح أنّ العطف بالواو لفائدة الجمع والاشتراك في الحكم الواحد بين المعطوف في قوله تعالى (ويكفّر عنكم من سيّئاتكم) –وهو القرينة

النحوية في هذا التقدير مع قرينة السياق العام- يعود على المعنى الموجود في المعطوف عليه في قوله (فهو خير لكم)، أي أن هناك فائدة مزدوجة للإخفاء: الأولى هي أنه خير لكم وأقرب إلى السلامة، والثانية هي أنّه يكفر به- أي بالإخفاء-عنكم من سيئاتكم. و بهذا يشير إلى أنّ هناك محذوفًا يمكن تقديره لفهم المعنى الكامل للجملة، وهو: (فهو أقرب إلى السلامة مع ما يطهركم بها ويزكيكم). والجملة الكاملة بعد تقدير المحذوف تصبح: (وإن تخفوا الصدقات وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم وأقرب إلى السلامة مع ما يطهركم بها ويزكّيكم ويكفر عنكم بإخفائها من سيّئاتكم) وبهذا التقدير، يُفهم أن الخير في الإخفاء ليس فقط لأجل السلامة ولكن أيضًا للتزكية ولتكفير السيئات ومن أجل السلامة من الرياء وزيادة الأجر.

ت- التحصيل:

التحصيل لغة من فعل حَصَلَ يحصُل حُصُولاً : أي بَقِيَ وثَبَتَ وذَهَبَ ما سِواهُ من حِسابٍ أو عَمَلٍ ونحوه فهو حاصل أي مجموع. والتحصيلُ: تمييز ما يحصل... وإخراجه وإبرازه كقوله تعالى (وحصّل ما في الصدور) نقول: حَصَّلْتُ الشيء تَحْصيلاً. وحاصِلُ الشيء ومَحْصوله: بقيَّته. والحصائِلُ: البقايا، الواحدة حَصيلةٌ... وتَحْصيلُ الكلام: ردُّه إلى محصوله أي إلى ما ميّز به عن سواه.[32] وفي العرف العام جمع العلم مطلقا... وغلب استعماله في تحصيل العلوم. والمحصَّلُ العلم والتحصيل المعرفة، وذو التحصيل العالم والحكيم، والتحصيل الحكمة والاعتدال.[33]

وقد استخدم ابن برّجان هذا اللفظ مقيّدا بألفاظ أخرى ليدلّ على مصطلح معيّن أراده ضمن سياق محدّد. مثال ذلك وصفه لبعض المفسرين بأهل التحصيل والنظر في معاني القرآن.[34] فظاهر كلامه عن العلماء المجتهدين الربّانيين المحققين الذين يردّون الكلام إلى حقائقه ويثبتونه فيبرز معنى جليّا. وهذا ما بيّنه ابن الوزير عندما قال: *"من لم يكن مِن أهل التحصيل، فليس بمجتهد لا في الوضع اللغوي، ولا في العرف الطارئ، لأنَّه ليس يَصِحُّ أن يَقَالَ لِعالم مجتهدٍ من علماء الإسلام: إنَّه ليس مِن أهل التحصيل."*[35]

كذلك نجد استعماله لمصطلح "وجه التحصيل" أو عبارة مثل "لا يقوم مع التحصيل وجه" كقوله: *"ذهب الجمهور من أهل التفسير إلى أن معنى الأمنية هنا التلاوة ، وأن معنى قوله : (أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) : ألقى في تلاوته ، واحتجوا على ذلك بشبه لا يقوم لها مع التحصيل وجه ، ولفظ الأمنية دلالته قائمة على معهوده كما تقدم ، وشواهد ذلك من أم القرآن وحديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كثيرة : يطول لسياق بعضها الكتاب."*[36] والمعنى أنّ الحجج والمبرّرات التي قدمها

جمهور المفسّرين ليست قوية أو سليمة ساعة تُفحص بدقة وتفصيل. بمعنى آخر، بعد التدقيق والتحقيق نحصّل نتيجة مغايرة تخالف المعطى السابق، وبالتالي فإنّ ابن برّجان يرى أن هذه الحجج ضعيفة لا تستند إلى أساس متين من المعرفة الدقيقة والتفصيلية المحصّلة.

ثانيا: المصطلحات الكلامية

أ- النظر :

يمثل النظر والتفكّر في الكون وفي معاني القرآن الكريم عند ابن برّجان وسيلة تفطّن وتقرّب لتعزيز الإيمان ورسوخه ولتأكيد البراهين على وجود الله تعالى وحكمته. ولا يتأتّى هذا النظر إلاّ بجمع الفؤاد وعدم التشتّت مع حضور القلب بإخلاص وصدق أثناءه، ليكشف عن الأنآء اللطيفة للصنعة الإلهية، فهو-أي النظر- ليس مجرد عملية عقلية، بل رحلة ارتقائية إيمانية روحية تقود الإنسان إلى اليقين بوجود الله وجمال حكمته. يقول ابن برّجان *"فمن أراد النظر في السماء والأرض ليحقق إيمانه بموجدها ويتحقق برهانه بجاعلها ومرتبها – جلَّ جلالُه – وتعالى علاؤه وشأنه ، فليجمع فؤاده وليحضر قلبه ، وليجل فكره فيما أظهر الله – جلَّ جلالُه – في السماء من غريب الصنعة ولطيف الحكمة..."*[37]

كذلك استخدم لفظ "النظر" في معرض تفسيره للآيات التي تتحدّث عن خلق السماوات والأرض وعن مخلوقات الله تعالى في السموات والأرض. حيث يفرّق بين النظر والتفكّر في عملية الخلق نفسها، أي كيفية خلق السماوات والأرض، وبين تأمّل الآيات والعلامات في السماوات والأرض التي تدل على قدرة الله وحكمته.[38] ويدلّل بهذه الآيات على أنّ المقصد هو التأمل والتفكر في هذه المخلوقات للوصول إلى اليقين والإيمان بعظمة الله وحكمته. وبالتلي يدعو ابن برّجان دائما إلى الربط بين التدبّر والعبرة للوصول إلى اليقين. يقول:*" فوصف – جلَّ جلالُه – المتدبر بما بث فيها من دابة باليقين ، إذا أحسن العبرة وسلك عن سواء قصة النظر والتذكر كما وصف – عز وجل – الناظر في الماء ، وفيما يفصله إليه إذا أحسن العبرة ، ووفق في النظر بالعقل عنه"*[39]

ب- *التحصيل الإلهي:*

ما يثير الانتباه ويشدّ الذهن، هو تفرّد ابن برّجان بمصطلح " التحصيل الإلهي" متوسّلا باللفظ اللغوي " التحصيل" والذي لم أجده عند غيره -حسب اطّلاعي- وقد ذكره في معرض حديثه عن الطبيعيات، إذ يقول: *" يتحرك الفلك المستقيم فتستدير هذه الدوائر على دوائر دونها، والتي دونها*

تستدير على ما هو دونها هكذا، وبحكم الأعلى ينتظم الأسفل إلى ما يكون منها كالدقائق والشعائر ودقائق الشعائر ومقاييس الأنفاس وأجزائها وأجزاء أجزائها، وعلى التحصيل الإلهي لدقتها وضيقها، فكالأجزاء التي تركب للأجسام عنها يتنزل الأمر بتلك الدوائر من مستقر إلى مستودع محمول ذلك بها وفيها، كحمل الجواهر الأعراض ."[40]

يظهر من هذا الاقتباس أنّ ابن برّجان يتحدّث عن الكون الواسع المنتظم الذي يتحرّك بشكل دائري، وتتحرك معه المجرات الكونية الأخرى، حيث هناك كونيات عليا تستدير على كونيات أدنى منها وصولا إلى أدقّ الدقائق كالأنفاس. ويشير مصطلح "التحصيل الإلهي" إلى العلم الإلهي الكلي المطلق اللامتناهي للكليّات، الذي يحيط بكل التفاصيل الدقيقة، مثل كيفية تركيب الأجسام من أجزاء صغيرة جدًا. كذلك الأوامر الإلهية تتنزل من الدوائر العليا إلى الدنيا، حيث تكون هذه الأوامر محفوظة ومحمولة بداخل هذه الدوائر.

وما يؤكّد هذا المعنى قوله في موضع آخر: *" قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) ويقول الله : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) بلى يعلمه على التفصيل ، وتفصيل التفصيل على التفصيل الإلهي ، وإحاطة العليم الخبير ، وفي خلق السماوات والأرض ، وجريان الأفلاك والشمس والقمر والنجوم ، وتواتر الليل والنهار ، ودوائر المد والجزر والغيض والفيض ، وإنزال الماء من السماء إلى الأرض ، وإحيائها بعد موتها ، في ذلك كله إخبار بالعود بعد البدء ، وإنباء بالإحياء من بعد الموت ، ومشاهدات لتحصيله بالعلم لما خلقه .*"[41]

قوله رحمه الله (بلى يعلمه على التفصيل، وتفصيل التفصيل على التفصيل الإلهي، وإحاطة العليم الخبير) يشير بما لا يدع مجالا للحزر والحيرة إلى أنّه يقصد علم الله: يعلم كل شيء بالتفصيل، بل وبأدق التفاصيل التي تتضمن التفاصيل نفسها، وفقاً لما يمكن أن نطلق عليه "التفصيل الإلهي"، أي العلم الكامل بالجزئيات. وقوله (في ذلك كله إخبار بالعود بعد البدء، وإنباء بالإحياء من بعد الموت، ومشاهدات لتحصيله بالعلم لما خلقه) أي أنّ كل هذه الآيات هي دلائل على قدرة الله على الإحياء بعد الإماتة، وهي شواهد مرئية يمكن للناس من خلالها إدراك وإثبات إمكانية البعث بعد الموت، وشواهد وأدلة على علمه الكلي الشامل المطلق بمخلوقاته كلّها.

وبالتالي يشير مصطلح" التحصيل الإلهي" ومصطلح " التفصيل الإلهي" عند ابن برّجان إلى علم الله وإحاطته المطلقة بالكليات والثاني إلى علم الله تعالى وإحاطته المطلقة بالجزئيات؛ ذكرهما في معرض حديثه عن النظام الكوني الإلهي الذي يعكس قدرة الله وحكمته، سواء كان في خلق السماوات

والأرض، أو في حركة الأفلاك، أو في دورة الحياة والطبيعة. وبناء عليه، يندرج هذا المصطلح ومن باب اعتبار المجال التداولي تحت المصطلحات الكلامية.

ثالثا: المصطلحات الصوفية

أ- العبرة:

العبرة في اللغة من عَبَرَ: "الْعَيْنُ وَالْبَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى النُّفُوذِ وَالْمُضِيِّ فِي الشَّيْءِ. يُقَالُ: عَبَرْتُ النَّهْرَ عُبُورًا. وَعَبْرُ النَّهْرِ: شَطُّهُ... فَأَمَّا الِاعْتِبَارُ وَالْعِبْرَةُ فَعِنْدَنَا مِقْيَسَانِ مِنْ عَبْرِيِّ النَّهْرِ; لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا... عِبْرٌ مُسَاوٍ لِصَاحِبِهِ فَذَاكَ عِبْرٌ لِهَذَا، وَهَذَا عِبْرٌ لِذَاكَ. فَإِذَا قُلْتَ اعْتَبَرْتُ الشَّيْءَ، فَكَأَنَّكَ نَظَرْتَ إِلَى الشَّيْءِ فَجَعَلْتَ مَا يَعْنِيكَ عِبْرًا لِذَاكَ: فَتَسَاوَيَا عِنْدَكَ. هَذَا عِنْدَنَا اشْتِقَاقُ الِاعْتِبَارِ."[42] وعَبَرْتُ الكتاب أَعْبُرُهُ عَبْراً، إذا تدبّرتَه في نفسك ولم تَرْفَعْ به صوتك. والعابِرُ: الَّذِي يَنْظُرُ فِي الكِتَابِ فيَعْبُره، أَي يَعْتَبِرُ بعضَهُ بِبَعْض حتَّى يَقَعَ فَهمُه عَلَيْهِ. والاعتبارُ بالأحداث والمواعظ: فِقْهُها والاستفادة بها في نظائرها {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} [الحشر: ٢]- والعِبْرة : الموعظة مما يتعظ به الإنسان ويعمل به ويعتبر ليستدل به على غيره : {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ}. [43]

وتمثّل كلمة "عبرة" مصطلحا جوهريا ومفهوما محوريا في المجال التداولي الصوفي عامة وفي تفسير ابن برّجان خاصّة، لأنها واحدة من الوسائل الأساسية للوصول إلى الله وتحقيق العلم واليقين. فالعبرة هي العملية التي يتم بها استنباط الحكم والفوائد والمعاني من الآيات العقدية و الكونية، وبدونها، يمر الإنسان على آيات الله وظواهر الحياة مرور الغافل الحيران. وجعل رحمه الله يترجم للفصول وللتنبيهات بقوله: العبرة في تصريف الرياح وتسخير السحاب، الاعتبار في الفلك، الاعتبار بالماء ينزله من السماء، في الاعتبار بما بثّ فيها من دابّة...الخ

يقول ابن برّجان: *"الوصول إليه – جلّ جلالُه – في الدنيا هو بالعلم واليقين ، وذلك قد يكون ابتداء من الله جلّ ذكره تنبيهًا للعبد وإكرامًا له ، لكن المعهود من ذلك بالتذكر وعند عقيب الذكر والفكر والتدبر واستعمال العبرة ."*[44]

يصرّح ابن برّجان في النصّ أعلاه بمفهوم الوصول إلى الله – جلَّ جلالُه – في الدنيا، والذي لا يتأتّى إلاّ ب العلم واليقين. و العلم هنا ليس العلم الدنيوي فقط، ولا العلم الظاهر، بل هو العلم الذي يقود إلى معرفة الله، أي علم الباطن والعلم القلبي الناتج عن التأمل والتفكر في خلق الله وآياته.

واليقين هو الرسوخ والثبات في الإيمان، وهو مرتبة عالية من مراتب الإيمان يتجاوز فيها المؤمن الشكوك والظنون.

ثمّ أشار إلى مسألة الجذب والاجتباء كونها تفضّل وإكرام وإحسان من الباري عزّوجل على من يشاء من عباده، حيث ينبه العبد ويلهمه ويفتح له أبواب المعرفة والبصيرة للوصول إلى اليقين. في مقابل العادة والمعهود والمجرّب المعروف بين الناس في الوصول إلى اليقين الذي يتمّ بالتذكر وبعد الذكر والفكر والتدبر واستعمال العبرة. فالمسلك الأول لا عمل للعبد فيه والمسلك الثاني بذل الوسع من العبد لتحقيق اليقين.

ب–السرّ:

تتنوّع معاني السرّ في الاصطلاح الصوفي بحسب المضاف إليه منها : المقصود به نصيب كل موجود من وجود الحق... ومنها: السر المصاحب من الحق للخلق على الوجه الذي يعرفه العبد بتعريف الربّ له، ويقصد به الإشارة من الأشياء ، التي تكون مصونة مكنونة بين العبد وبين الحق ، وعليه يحمل معنى قولهم: أسرارنا بكر لم يفتضها وهم واهم ، ويقولون : صدور الأحرار قبور الأسرار . وسر السر : يعنون به ما انفرد به الحق عن العبد ، بحيث لا يكون لغير الله اطلاع عليه ...إلى غير ذلك من المعاني عندهم.[45]

و لا يكاد يمرّ القارئ على تفسير ابن برّجان إلاّ ويقع على كلام له عن السرّ –معرّفة– بحسب السياق. فتارة يقصد به القلب: "واشتغال السر بذكره وطلب معرفته"[46] وتارة يريد به النص الباطن من القرآن: "ويعلم أنه قد أوجب البحث عن خفي السر المستودع في الخطاب"[47] "وأغمض وأحكم السر بين المحكم والمتشابه، فما من معنى ولا معلم في الجملة إلا وفي الجزء نظيره ، وإن خفي لصغره فبطن لخفائه ."[48] ويشير به إلى الإخلاص، و الحكمة والتوحيد وفي مقابل العلانية...الخ. كذلك يجيء بها نكرة مضافة مثل قوله: سرّ سرّه، سرّ الصنعة في المصنوع، سرّ الخطاب، سرّ المراد...الخ وهو بهذا يتناول معان لطيفة متعدّدة تصبّ جميعها في محلّ الشهود والمشاهدة تحققّا وتخلّقا وفناء.

المحور الثالث: شروط الفهم عن الله في تفسير ابن برجان.

إنّ المقصود بقولنا: "شروط الفهم" هو المتطلّبات والضوابط التي اعتمدها وانطلق منها ابن برجان في تفسيره على وجه العموم وفي نظره المقاصدي لآيات وأحكام العقائد في القرآن الكريم على وجه الخصوص، و تتعلق الشروط من جهة أخرى بمنهجه في تنظيمه وتوجيهه للمقاصد الإيمانية ضمن

تفسيره. فلسنا نروم الحديث عن القواعد المنهجية الأصولية المعروفة في علم التفسير، فهذه كثيرة جدّا في تفسيره، وإنّما بحثنا منصبّ على تلك الشروط التي هي منطلقات معرفية عقلية وجدانية نفسية يرى ابن برّجان أنّها توجب بإذن الله تحصيل الفهم عن الله والوقوف على مراده سبحانه وتعالى؛ فهي ليست مجرّد أدوات منهجية لفهم النصوص، بل هي منطلقات أساسية ترتبط بالتجربة الروحية الشخصية، تبدأ منها عملية التفسير وتنتهي بها عملية التعليل أو التقصيد بغية الوقوف على أسرار العقائد ومعانيها.

ولقد حاولنا استنباط هذه الشروط من قراءتنا للزهراوين على وجه التعيين، فربّما تكون مستغرقة جميع تفسيره لسور القرآن، وربّما تكون هناك شروط أخر، والذي يغلّبه الظنّ هو تنوّع وتعدّد المنطلقات وضوابط الفهم عن الله تعالى عند ابن برّجان رحمه الله تساوقا مع ما أوتي من كشف الأسرار والمعاني القرآنية والعلم اللدني البارز في تأويلاته. ونذكر هذه الشروط كالآتي:

1- اعتبار الجبّلة والصفة موجب لتفاوت الناس في الفهم عن الله

القرآن الكريم وإن كان مباينًا لكلام البشر-كما يقول ابن برّجان- فإنّه قد نزّله للفهم لمن يريد الفهم، فلا يتردّد ابن برّجان في التذكير بأوصاف الإنسان وما جُبِلَ عليه حال تعرّض هذا الإنسان للقرآن الكريم، تاليا كان أم متلقيا أم متدبّرا.

يشير في مقدّمته إلى تنوع الصفات البشرية وأصولها البيولوجية والنفسية والروحية، ويوضح كيف أنّ الإنسان مزيج من عناصر أرضية مختلفة تؤثر على صفاته وسلوكياته فتغلب عليه صفات نباتية أو صفات بهيمية؛ فمن الناس من تغلب عليه الضراوة والاستمرار وهي صفة التراب مما يجعلهم بليدين، جاهلين، وغير قادرين على التفوق في الأمور؛ ومنهم من تغلب عليه صفة النبات وقواه، فكان لذلك الغالب عليه النهامة في الأكل والشرب، والغباوة في سبل الاستجابة في الفهم وقلة الفطنة؛ ومنهم من غلبت عليه الصفة البهيمية وجبلتها، فكان الغالب عليه الجهل والتهور والغضب والعدوانية وعدم النيل وشدة شهوة البطن والفرج.[49]

لكن هناك من تغلب عليه صفات العقلية أو صفات الملكية مع ما في تركيبه من عناصر أرضية، فيميل إلى الفطنة والفحص والتمييز للأمور الغائبة، وكان لذلك عارفًا بقدره، مميزًا لظواهر الأشياء متطلعًا إلى غواشيها، لما له من عقل، ومؤمنًا، مسلمًا، مطواعًا، كثير الحياء، قليل الخلاف، كثير الإسعاف، راغبًا في الحقائق، مبتغيًا للإنصاف والمحاسن لما له من ملكية. [50] وبعض الناس يكونون

مزيجًا من صفات متعددة تشمل الجماد والنبات والحيوان والعقل والملك، مما يجعل سلوكياتهم معقدة ومتنوعة.[51]

ثم قد يتسع هذا جدًّا باختلاف الأغراض وتباين الدواعي وتباين الميولات والدوافع، كما يختلف المفهوم والمعلوم بين البشر، وهم مائلون لا محالة إلى ما غلب غليهم من صفات الخِلقة. وبناء على هذا التباين في الصفات الخلقية يكون التفاوت في التلقّي عن الله تعالى، فالساهون مثلا الغافلون متجاهلين لكتاب ربّهم معرضين عن التدبّر في معانيه لاهين عن النظر في مصنوعاته سبحانه غير معتبرين بها.[52] بما كان لهم من طبع وجبلّة الخلقة ثمّ من دوافع وأغراض وميولات.

ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم اختلاف الناس وتفاوتهم في هممهم وقدراتهم الفكرية، وأن معظمهم قد لا يبذلون الجهد اللازم لفهم المعاني العميقة، ولتفاضلهم أيضًا في درجات الخصوصية من قبيل الهبات والهدايات التي يمنحها الله للناس. فهناك من الناس من يكون فهمه محدودًا بما يدركه بحواسه فقط، ومنهم من يكون فطنًا وقادرًا على التمييز والتفكر، وآخرون ملهمون ومحدّثون، وهناك من يكون في مرتبة متوسطة بين الفئات المختلفة...الخ[53]

2 – الإيمان الجازم بأنّ الله هو الذي يهدي من يشاء من عباده للفهم عنه

بعد اعتبار الخِلقة والصفة في الإنسان ودرك درجات خصوصية كلّ فرد، يأتي الشرط الثاني للفهم عن الله، وهو الإيمان الجازم بهداية الله له للفهم وتزكيته سبحانه لمن يشاء من عباده فيتولاه ويؤيّده، فبقدر تلك التزكية وعناية الله به "يُحيي بذلك مواته، وينشط جماده، وتنشرح قوى نياته، فتنقاد بإذن الله تعالى لذلك طباعه ويسلس قياده، ويسهل تداركه نفسه، ويتيسر له صلاح شأنه. "[54]

ثمّ بعد الهداية والتوفيق والتأييد، تأتي مرحلة الكشف، فيكشف الله سبحانه وتعالى لبصائر بعض عباده المؤمنين يرون بها ما غاب عن أبصار رؤوسهم، فيرون المرائي الروحانية بنور الإيمان وحقيقة الإيقان ما ليس بشخص ولا جوهر ولا عرض ولا يصوره عقل ولا يكيفه لهم وهْم، فيفتح الله لهم أبواب الذكر والشعور، والفطنة والإلهام، والتوسم.[55] فلولا هداية الله تعالى وتأييده لعباده ما لمح الكتاب "ببصيرة مستبصر، ولا استخرج منه غامضًا عقل متفكر، (نرفع في ذلك بعضهم فوق بعض درجات لنبلوهم فيما آتاهم)[56] "فالله جلّ جلاله هو الذي يمنح الفهم والبصيرة لمن يشاء، وهو الذي يمكن الأشخاص من فهم الإشارات والمعاني المخفية.

1– انتفاء موانع الإلهام والكشف

مايز ابن برّجان بين الإلهام والتوسّم: فقال الإلهام هو" أمر ينزل إلى لوح القلب، وهو إنباء بما في الباطن خزانته، وفي أصل الجبلة آثاره" أي أنّه إشارات أو معلومات تأتي مباشرة إلى القلب، تخبر بما هو موجود في داخل النفس وما يخزّنه باطنها أو ما يتجلّى من آثار الطبيعة الأصلية للشخص. وهو الرزق الأعظم والأفضل،[57] لكونه يحضر بدون تعرّض إليه ولا تفكّر فيه. [58] وأمّا التوسّم فهو التفرّس تحيط به صفات المؤمنين المعتبرين وتكون سببا له، فيظهر من ظاهر الخطاب فهم لسرّ المراد أي تكشف المعاني الخفية المقصودة من خلال السياق.[59]

و قد ضرب ابن برّجان أمثلة عن التوسّم فمنه "ما يكون كالألغاز يعلمه الفطن عن جنب، ومنه ما يكون كالمحاجاة يعلمه الماهر الفطن بعد فكر وروية"[60] والمقصود أنّ هناك أنواع من الخفية في الكلام، بعضها يكون مثل الألغاز التي يفهمها الشخص الذكي بسهولة، وبعضها يكون مثل الأحاجي التي تحتاج إلى تفكير وتأمل كبيرين لفهمها.

وكلاهما –أي الإلهام والتوسّم– كشف باعتبارات متجانسة مع ما في الخطاب القرآني، ولهذا الكشف موانع ، فإذا انتفت وقع بإذن الله، ذكرها ابن برّجان بوسم " أسباب الحجب" في مواضع متفرّقة من تفسيره، أجملها كالآتي:

- تعلّق القلوب بما لا يعني وصرفها عن الاشتغال بمعرفة الله تعالى.
- طلب معرفة الله تعالى والاعتقاد بالغيبيات بما لا ينبغي.
- الخمول والتقاعس عن طلب مرضاة الباري عزّوجلّ.
- السهو والغفلة والإعراض عن الذكر.
- الشكّ والتردّد أو اليأس من فضل الله في الفتح اللدني.

4– الربط بين الظاهر والباطن

يقول في هذا السياق: " فلم يكن الله – جلَّ جلالُه – ليجعل كلامه الكريم ظاهرًا كله، مفصلاً كله للحكمة والحكم اللذين في كلامه، ولئلا يمل إلى فهم رفيع خطابه إلا من صرف همته إليه، وعكف بجد من ذاته على التفكر فيه والتدبر له" [61] "وجعل منه أيضًا ما هو كهيئة المكنون كالروحانيات في موجودات الغيب، ليصل أهل القرآن من معرفة كلام ربهم – جلَّ جلالُه – إلى حظوظهم المقسومة لهم، كل يُعْرف له من نهره ويُسقى منه بكأسه"[62]

مسألة الظاهر والباطن عند الصوفية من القضايا المحورية التي تعكس نظرتهم العميقة والشاملة إلى النصوص الدينية، وتحديداً القرآن الكريم. انطلاقاً من النص أعلاه كمثال، يمكننا القول أنّ ابن

برّجان يعرّض بمن يقفون على ظواهر النصوص والذي هو موّجه للعامّة على قدر حظوظهم من الحسّ السطحية. أما الباطن فهو لمن اعتبر وتفكّر وانشغل بالقرب من أنوار الفتوحات الربانية.

والحكمة من وجود الظاهر والباطن في النصوص-كما يبيّنها ابن برّجان- هو وجود التدرج في الفهم ليميز الله – جل جلاله – بين الناس على أساس سعيهم واجتهادهم في طلب المعرفة. فالظاهر يخاطب العامة ويوفر لهم الهداية الأساسية، بينما الباطن يخاطب الخاصة من الذين يعكفون بجد على التفكر والتدبر، فينفتح لهم كنوز الحكمة والمعرفة الإلهية.

ثم نجده يبيّن كيف تتعدّد المعاني في النصّ الواحد بين ما ظهر منه وما بطن فيه، فيقول: "... وربما رقَّ الخطاب كما قد تتشاكل الوجوه وتشتبه، فتمس الحاجة إلى الأمل بحدة البصيرة، وربما تداخلت المعاني فخفيت في أثناء الخطاب، فتنازعت المراد وتقسمت المعاني لذلك، فكان للخطاب الوجهان والأكثر، وربما تباعدت المعاني وتباينت كوجود الموجودات سواء، وربما قد تقدم خطاب وقد كان في سياق الظاهر أولى بالتقديم، وربما تأخر خطاب وقد كان التقديم أقرب إلى الأفهام على موضع سياق الظاهر، لحكمة بالغة لا يوقف على تحقيقها مع بادئ الرأي، فأشكل لذلك التمييز بين مراد ومراد على ذلك. فعليك – وفقك الله – بالتوقف على هذا، لتحقيق النظر والتضرع إلى مالك عظيم الإجابة – جلَّ جلالُه – في أن يفهمك عنه، وإياك والقناعة بما يبدو أولاً من بعض الأوجه؛ لقد تعرض الفتن في بعض المواطن قبل التثبت والابتهال في العصمة، والضراعة في التوفيق، فتردد في البحث والنظر وسله الفتح والإلهام إلى الرشاد، وذلك من أعظم العون لك، ما أنت بسبيله."[63]

يعبر ابن برّجان في النصّ أعلاه عن تداخل المعاني وخفائها حال كون الخطاب رقيقا دقيقا حمالا لأوجه متعدّدة، مما يؤدي إلى تضارب المعاني وتفريقها وتباعدها كتباين الموجودات في الكون، وبالتالي، مما يتطلب تأملاً عميقاً لفهم المراد الحقيقي. وربما يكون هناك تقديم وتأخير في الخطاب الإلهي، بحيث يأتي بعض الكلام متأخراً رغم أنه كان أولى بالتقديم من حيث الظاهر، أو العكس. هذا التقديم والتأخير يحمل حكمة إلهية عميقة قد لا يتسنى للمرء فهمها من النظرة الأولى. لذلك يدعو ابن برّجان الإنسان إلى التوقف والتأمل بعناية لتحقيق الفهم الصحيح. كما يجب التضرع إلى الله – جل جلاله – ليفهمه معاني كلامه، والحذر من القناعة بما يبدو في النظرة الأولى، إذ قد تظهر الفتن في بعض المواطن قبل التثبت والتحقق، لذا ينبغي التضرع إلى الله بطلب العصمة والتوفيق، والتردد في البحث والنظر بجدية حتى ينكشف الفهم الصحيح.

المحور الرابع: وجوه العلّة في التوسّمات الإيمانية والروحية في تفسير الزهراوين.

هذا الجزء التطبيقيّ من الدراسة يتناول جوانب التعليل التي جعلت ابن برجان يختار معانٍ معينة أو إشارات محددة في تفسيره. أي الأسباب التي دفعت ابن برّجان ليوجّه تفسيره أو ليتوسّم معان ودلالات إيمانية وروحية معينة عند تفسيره لآيات العقائد في سورتي البقرة وآل عمران. ونحن بدورنا ننتقي بعض النماذج لهذه التوسّمات ونبيّن دوافعها عند ابن برّجان وفق ما وفقنا الله سبحانه و تعالى إلى استنباطه.

1- وجوه العلة في توسّم معنى "الاسم هو المسمى"

يذكر ابن برّجان باقتضاب اختلاف العلماء - رحمهم الله — وجدالهم الطويل في الاسم : ما هو ؟ أهو المسمى أو غير المسمى ؟ وهل اسم الله هو الله أو اسم الله هو غير الله؟ ثمّ يبدأ في بيان هذه المسألة من جهة نظره المقاصديّ، ويتدرّج في البيان من العام إلى الخاصّ كالآتي:[64]

- نحن في سجن الحياة الدنيا في حالة من الغيبة عن الله، حيث لا نستطيع رؤية الله مباشرةً، ولكنه ليس غيبا مطلقا.

- الحياة الإيمانية في الدنيا تقوم على الإيمان بالأشياء الغائبة التي لا نراها، لحكمة الابتلاء والامتحان.

- أقام الله لنا ما يعوض عن عدم رؤيته بشكل مباشر، وذلك من خلال الأخبار والإعلام عنه، فالإيمان بما أخبر هو الإيمان بالغيب و يُعَدّ مقام المشاهدة، حيث نؤمن بما أخبرنا الله عنه كأننا نراه.

-فإذا ذكرناه سبحانه وهو غيب يقوم الذكر مقام المذكور -أي الله-،حيث يُعتبر ذكر الله وسيلة لتحقيق الحضور الروحي والقرب منه.

- ويقوم الاسم مقام المسمى، حيث أن ذكر أسماء الله هو بمثابة الاقتراب من ذاته. وكل اسم من أسماء الله يعبر عن جانب من جوانب عظمته وكماله، وبالتالي يمكننا الاقتراب منه من خلال فهم هذه الأسماء وترديدها.

- ثمّ بتقرير الشرع في القرآن أنّ الله قريب من عباده قربًا لا يدرك بالحواس بل يُفهم بالقلب والوجدان.

- والله موجود في كل شيء بخلقه وأمره وإرادته من خلال أسمائه وصفاته وأفعاله.

- إذن، فأسماؤه - جلَّ جلالُه - من هذه الجهة هي "هو" أي كلمة "هو" تشير إلى كمال الله وتمام صفاته وجوهر وجوده.

وجوه التعليل:

الاسم هو المسمى باعتبار:

– أزلية الله ووحدانيته: الله كان في وحدانيته وأزليته قبل خلق الكون، وعندما خلقه، كان ولا يزال موجودًا فيه ومعه بصفاته وأسمائه لا بذاته. فالله خلق كل شيء وأمره نافذ في كل شيء.

– الولاية ووحدة الشهود: الأولياء يعرفونه بروحانية خاصة وعميقة توحّد الاسم مع المسمى.

– المثال الأعلى والتنزيه: الله هو المثل الأعلى في كل شيء في السماوات والأرض، وهو المثال الأكمل للكمال والجلال، لا شبيه ولا ندّ له.

– المعية والقرب: كما أن الشمس والقمر ينعكسان على الأشياء في الأرض، فيظهر ضياؤهما ونورهما، فكذلك وجود الله يظهر في كل شيء، وهو قريب من الإنسان. و الله أعظم وأعلى من كل شيء، وحقيقته أسمى من كل ما يمكن إدراكه أو تشبيهه.

–الاسم الجامع: استخدام "هو" كاسم جامع لأسماء الله الحسنى يعزز مفهوم التوحيد، حيث يختصر كل صفات الله في كلمة واحدة تشير إلى كماله المطلق وجوهر وجوده.

2– وجوه العلّة في توسّم معنى" وعلّم آدم"

قال ابن برّجان: "قوله "إني أعلم ما لا تعلمون"... فمعناه وهو أعلم : إنها إشارة إلى ما جعل في آدم – عليه السلام – من الحق ، وأجزل حظا له من الفطرة وخصه به من العلم وحباه من الاصطفاء ، والمعنى الذي من أجله نوّه بين الملائكة – عليهم السلام – وباهاهم به ، ثم على القول بحكم العموم هو إخبار عن سعة علمه ، وإحاطة خبره سرًّا وعلنًا جملة وتفصيلاً . أعقب ذلك قوله : (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) . فيمكن أن يكون هذا الخطاب – والله أَعلم – للقبيل من الملائكة ، الذين أفهمهم الخلافة السفلى من صنفي الخلافتين ، فباهاهم بآدم – عليه السلام – وعلى جميع الملائكة ، وهو المصطفى من الخلائف بما علمه من الأسماء ، ومقتضياتها التي هي المخلوق بها السَّمَاوَات والأرض ، وهو مقتضى السر فيها والعلانية ."[65]

يعرض النصّ أعلاه تفسيرًا لإخبار الله تعالى الملائكة أنه يعلم أمورًا هم لا يعلمونها، وهذا يشمل الحكمة من خلق آدم واصطفائه للخلافة وإعطائه مقامًا مميزًا، وأنّ الله تعالى علم آدم أسماء كل الأشياء، وهذا التعليم لم يكن مجرد تعليم لغوي بل فهمًا عميقًا لمعاني هذه الأسماء ومقتضياتها وما

يتطلّبه ذلك من معرفة بالأمور الظاهرة والباطنة. فعلم الله تعالى لا يمكن للبشر أو الملائكة أن يحيطوا به، وهو يتجاوز كل ما يمكنهم تخيله أو التفكير فيه. الله يعلم كل شيء بشكل شامل ومفصل.

وجوه التعليل

وللنص المذكور وجوه متعددة للعلة التي اعتمد عليها تفسير ابن برجان لهذه الآيات الكريمة، منها:

– العلة الأساسية هي علم الله الواسع الذي لا يقدر قدره، ويحيط بكل شيء سراً وعلانية. فابن برجان يركز على أنّ علم الله يتجاوز ما يمكن للبشر أو الملائكة إدراكه أو التفكير فيه.

– خصوصية آدم عليه السلام هي علّة التعليم ، مما جعله مميزاً ومصطفى من الله. هذه الخصوصية هي التي نوه الله بها بين الملائكة وباهاهم بآدم.

– الترشيد والإفهام هو علّة التعليم. فهذا التعليم ليس مجرد معرفة بالأسماء بل يشمل الفهم الأعمق لمقتضياتها ومعانيها، وبالتالي معرفة الظاهر والباطن وهو ما لم يكن للملائكة علم به.

– عجز الملائكة عن العلم بكلّ شيء علّة خلق و تعليم آدم عليه السلام ليثبت لهم عجزهم عن الإحاطة بالعلم الإلهي الكامل، ويؤكد لهم تفضيل آدم عليهم في هذا المجال.

3– وجوه العلّة في توسّم معنى آيات البقرة

توسّم ابن برّجان معنى البقرة في قوله تعالى (أن تذبحوا بقرة) بالأمّة أي الجمع من الناس، باعتبار أنّ تأويل البقرة في رؤيا يوسف هي السنة والسنة مدة من المدد ، والمدة قد تسمى أمّة أيضًا . قال الله – جلَّ جلالُه – : (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) . وبالتالي فإنّ أوصاف البقرة في الآية هي أوصاف الأمم التي سوف تحكم اليهود وتستضعفهم.[66]

وعلّة هذا التوسّم ما يلي:[67]

– طلبت اليهود من ربهم بيانًا عن أوصاف البقرة، وهذا الطلب لم تدفع الحاجة إليه إذ لم يريدوا امتثال أمر ربّهم ابتداء.

–لما كان الطلب من قبيل التعنّت والجحود، وصف الله لهم البقرة بوصف ظاهر متضمّن لوصف باطن فيه إنذار لهم بعذاب واقع بهم على يدي أمة من الأمم إلى مدة شاءها الله – جلَّ جلالُه —

–قال عز من قائل : (إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ) .فكان ذلك التأويل لذلك الخطاب في وصف البقرة واقفًا على أمة فارس ، أمة لا تستن بسنة نبي وهو تأويل قوله : (لَا

فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ) أي : مسنة يخبر عن قدم ملكهم بين ذلك ؛ أي : ليست على هداية شرع ، فكان ذلك من حكمه فيهم إلى مدة شاءها .

– ثم قالوا له من بعد ذلك : (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ... فقال: (إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) وكان تأويل هذا الوصف واقع على أنه ملك بني الأصفر ، ملكهم ملك معجب يعذبهم بأيديهم ويملكهم إياهم أيضًا .

–وطلبوا البيان ثالثة دون ضرورة اضطرتهم إلى ذلك ، فزاد البقرة نعتا ليتعذر وجودها جدًّا ، فقال : (إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا) .فكان ظاهر الخطاب أنه وصف المأمور بذبحها ، وباطنه إنذار لعذاب واقع على أيدي أمة ثالثة تغلبهم على أمرهم وهي العرب أمة مسلمة لا دخل فيها من غير الإسلام غير مذللة للمماليك، ولا عاملة بالفلاحة ، لا يرد عليهم شرع من نبي هو من غيرها .

4–وجوه العلة في توسّم معنى (فإن حاجّوك فقلت أسلمت وجهي لله ومن اتّبعني)

ذكر ابن برّجان في معرض تفسيره لهذه الآية أنّ أكثر العلماء – رحمة الله عليهم — على أنها منسوخة بآية السيف. وهو لا يتّفق مع هذا القول، ويقول أنّها ليست بمنسوخة ووجوه علة هذا الاختيار باعتبار أنّ:[68]

- كلّ أمر ورد يجب امتثاله في وقتٍ ما، لعلة توجب ذلك الحكم ، ثُمَّ تنتقل بانتقال ذلك السير والعلة إلى حكم آخر ، فليس هذا بنسخ بإعمال هذه القاعدة، إنما النسخ : الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله بعد نسخه .
- الله جلّ جلاله قال. – : (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) فإن لم يكن نسخ فهناك النسيء، وهذا باب كبير دوّن حكمه في القرآن العزيز ، كقوله جلَّ قوله : (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ . . . .) و حيث وقع من الكتاب العزيز.
- الله – جلَّ جلالُه – بعث رسوله محمدًا – صلى الله عليه وسلم – والإسلام غريب ، وأهله قليل عددهم مستضعفون في الأرض ، فأنزل الله من كتابه وأمره عليه وعلى أصحابه ما يحسن بتلك الحال رأفة منه بهم ورحمة ، فكان الأمر بالدعاء والدعوة إلى الله والصبر على الأذى... الخ. فلما قوي الإسلام وأعزه بنصره أنزل عليه من الخطاب ما يكافئ تلك

الحال من الذبّ عن الإسلام ، والانتصار له والدعاء إليه ، والأمر بالقتال والعزم عليه ، والترغيب فيه والمطالبة للكافرين ، والتعوذ لهم بكل مرصد ، وهو كثير في القرآن العزيز .

- رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : "بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء" فكيف يتوهم وجود نسخ فيما هذا سبيله، ولا بد من الكثرة للإسلام بعد كونه غريبا، فمن الواجب إذًا أن يرجع وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلى القتال، وكرّة بعد كرّة...
- الحرب لا تضع أوزارها إلا بعد هلاك يأجوج ومأجوج بعيسى ابن مريم – عليه السلام – ، وهذا بيان شافٍ وأمر واضح أن حكم القتال والانتصار غير ناسخ لحكم المسالمة والمهادنة، وإنما هي مداولة ، ولكل دولة أمرها قائم في الكتاب ، فوجب امتثال كل أمر في وقته وحينه.

5–وجوه العلّة في توسّم معنى (ربّ أنّى يكون لي غلام...) آل عمران

ذكر ابن برّجان في معرض تفسيره لقوله قوله فيما حكاه عن نبيه زكريا – عليه السلام – : (رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ) أنّ إعظام زكريا عليه السلام لإتيان الولد في حال الكبر وعقم المرأة فيه نظر وتحقيق وقول، إذ أنّه كان هو الداعي السائل الراغب في الولد ، وهم أهل العلم بالله جل ذكره وأهل القرب منه ، فكيف يتوجه هذا من مثله ؟! [69] ويجيب –رحمه الله– بتوسّمات وباعتبارات كالآتي:

- قوله : (رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ) كان تعجبًا منه وسرورا: تعجّبا من عظم اقتدار الله – جلَّ جلالُه – على مراده من جميع الوجوه ، وسرورا بمنزلته من ربه إذا بلغت رتبته – عليه السَّلام – عنده – جلَّ جلالُه – ، ومنزلته منه أن يخرق له العوائد ، ويظهر له من المقدور الغائب بدعائه وسؤاله إياه.
- سؤاله عليه السلام كان إرادة لمعرفة كيفية اطّراح الأسباب وإخراج أحكامه سبحانه على حكم الكلمة والقدرة لا على حكم الأسباب والمسببات المعهودة عند الناس.
- إنّ الأسباب والوسائط لا بد لأوائلها أن تكون عن عدم أسباب ووسائط ، فحكم الكلمة هو الأصل، وحكم السنة فرع له ؛ وإلى حكم الكلمة تعود الأحكام كلها معنى

وإيجادًا ، ثم أراه آية على ذلك في الوجود بقوله جلَّ قوله : (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) إشارة إلى مقدور الله الغائب عنده سبحانه كالحاضر الموجود المعهود.

- إنّ حقيقة التوحيد أن يعلم العبد أن قدرة الله تعالى على الأشياء بلا علاج ،وصنعه في مصنوعاته بلا مزاج ولا علّة، وما تصور في الوهم فالله بخلافه.

خاتمة:

في الأخير، نخلص إلى أنّ:

-الدراسة ألقت الضوء في عجالة على النظر المقاصدي في تفسير ابن برّجان ممّا يعزز من فهم مقاصد الشريعة وأهدافها العليا.

- تناولت الدراسة تفسير ابن برّجان للزهراوين من عدة جوانب، بما في ذلك الألفاظ والمعاني والحكمة من التشريعات والأحكام الإلهية، ممّا يوفر للباحث إطارا نظريا وتطبيقيا لمقاصد القرآن في تفسير ابن برّجان.

- كشفت الدراسة عن عمق النظر المقاصديّ عند أبي الحكم عبد السلام بن برجان، حيث أظهر اهتماماً كبيراً ببيان الحِكَم والأهداف الشرعية من الآيات القرآنية، خاصة تلك المتعلقة بالعقيدة والغيبيات.

- قام ابن برجان بربط الألفاظ والمعاني التي استخدمها في تفسيره بالخطاب القرآني وأخضعها لضوابط الفهم عن الله، مما يعزز استيعاب الآيات بشكل متكامل ومترابط.

- يعدّ ابن برجان نموذجاً متميزاً في التفسير المقاصديّ، حيث يجمع بين المعرفة العميقة بالنص القرآني والفهم الباطني لمقاصده. وذلك من خلال أهمية انتخاب المعاني التوسمية، والتي تعتبر وسيلة فعالة لتفسير الآيات بشكل يعكس مقاصد الشريعة الإسلامية.

الهوامش

[1] ينظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة، ط 3، 1405هـ، 1985 م ج22، ص 334.

[2] ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، 1420هـ، 2000م،ج 18، ص 260 (ذكرهما الصفدي بصفة الحفيد والجد) وينظر: شمس الدين بن الغزي، ديوان الإسلام،

تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 1، 1411هـ، 1990م ، الفصل الخامس في الأبناء من حرف الباء – ص 345

[3] ينظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج22، ص 334، و ص185 – الفيروزآبادي، كتاب البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة – دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1، 1421هـ. حرف العين – ص185، شمس الدين بن الغزي (ت ١١٦٧هـ)، ديوان الإسلام، مرجع سابق،، ج1، ص345

[4] ينظر: ابن الزبير الغرناطي، صلة الصلة، دار الكتب العلمية، 2008م، ص 123

[5] ينظر: ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، ص 536

[6] ينظر: ، الذيل والتكملة، ص 354، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص 455، الذهبي، المستملح من كتاب الصلة، ص 375، و السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ص 177

[7] أحمد بن إبراهيم الغرناطي، صلة الصلة، مرجع سابق، ص 123-124

[8] ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقفي، أبو ظبي، ط 1، 1423هأ، ج8، ص340

[9] أبو يعقوب التادلي ابن الزيات، التشوّف إلى رجال التصوّف، دار ومكتبة الثقافة الدينية، 2006م، ص 138

[10] ابن الزبير الغرناطي، صلة الصلة، مرجع سابق، ص123

[11] ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع: مركز البحوث والدارسات العربية والإسلامية بدار هجر، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط 1، 1418هـ، 1997م، ج16، ص593

[12] ينظر: السيوطي –كتاب بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة – حرف الياء – مرجع السابق، ص332

[13] ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ط: 1، 1971م، ج4، ص 230

[14] السيوطي، بغية الوعاة، المرجع السابق، ص 90

[15] ابن خلكان، وفيات الأعيان، مرجع سابق- ص230 –

[16] ذكره في: الفتوحات المكية، إنشاء الدوائر، تفسير القرآن..

[17] في: السفينة القادرية وفتوح الغيب

[18] في: التذكرة بأحوال الموتى والآخرة

[19] في: البحر المحيط في أصول الفقه، والبرهان

[20] في : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

[21] ينظر: مقدمة المحقق فريدي المزيدي لكتاب تنبيه الأفهام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1434هـ، 2013م، ج1، ص 37-38

[22] محمد أحمد قاسم ومحي الدين ديب، علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني»، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس – لبنان، ط 1، 2003م، ص 228

[23] حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث، د. ط، ج3، ص301

[24] تفسير مجاهد، تح: عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي، مجمع البحوث الاسلامية – اسلام آباد، المقدّمة، ج1، ص12

[25] أبو الحكم بن برّجان، تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، مصدر سابق، ج1، ص 496

[26] ابن برّجان، تنبيه الأفهام، ج1، ص240

[27] إيهاب سلامة، قرينة السياق ودورها في التقعيد النحوي والتوجيه الإعرابي في كتاب سيبويه، رسالة دكتوراة، قسم اللغة العربية، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس، عام النشر: 2016 م. ص222، بتصرّف

[28] المرجع نفسه، ص 88 بتصرّف

[29] حسن بن عبد الرزاق الجناجيّ، خصائص النظم في «خصائص العربية» لأبي الفتح عثمان بن جني، دار الطباعة المحمدية القاهرة – مصر، الطبعة: 1، 1407هـ، 1987م. ص 87 بتصرّف

[30] ابن برّجان، تنبيه الأفهام، ج1، ص178-179

[31] ابن برّجان، ج1، ص 457

[32] ينظر: الخليل الفراهيدي، كتاب العين، ط دار ومكتبة الهلال، ج3، ص116- الجوهري، الصحاح في اللغة، مكتبة الشاملة، ص 1027- ابن فارس، مقاييس اللغة، ط دار الفكر، ج 2، ص 68

[33] ينظر: رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمَّد سَليم النعَيمي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط 1، ج3، ص 218 بتصرّف.

[34] ابن برجان، ج1، ص 559

[35] ابن الوزير، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 3، 1415هـ، 1994م، ج2، ص321

[36] ابن برّجان، ج1، ص 228

[37] ابن برّجان، ج1، ص 296

[38] المصدر نفسه، ج1، ص 331

[39] المصدر نفسه، ج1، ص 351

[40] ابن برّجان، ج1، ص 305

[41] المصدر نفسه، ج3، ص 426

[42] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ،1979م، مادة (عبر)، ج4، ص207 .

43 ينظر: الجوهري، الصحاح، ج1، ص732، مرتضى الزبيدي، تاج العروس، ج12، ص500، محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، ج3، ص 1394

44 ابن برّجان، ج1، ص 112

45 ينظر: مصطفى العروسي، حاشية العروسي على شرح زكريا بن محمد الأنصاري للرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية، ط 2، 2007م، ج1، ص 44 بتصرّف

46 ابن برّجان، ج1، ص 517

47 المصدر نفسه، ج1، ص335

48 المصدر نفسه، ج1، ص345

49 ينظر: ابن برّجان، ج1، ص54

50 المصدر نفسه، ص 54

51 المصدر نفسه، ص 54

52 ينظر: ابن برّجان، ج1، ص52، بتصرّف

53 المصدر نفسه، ص 58

54 المصدر نفسه، ص 55

55 المصدر نفسه، ص 56

56 المصدر نفسه، ص 53

57 ابن برجان، ج1، ص 127

58 المصدر نفسه، ج1، ص 228

59 المصدر نفسه، ج1، ص 56

60 المصدر نفسه، ج1، ص 58

61 المصدر نفسه، ص 58

62 المصدر نفسه، ص 59

63 ابن برّجان، ج1–ص 85-86

64 ابن برّجان، ج1- ص 63-64-65

65 ابن برّجان، ج1- ص 182

66 ابن برّجان، ج1–ص 223

67 المصدر نفسه، ص 224

68 ابن برّجان، ج1–ص 512

69 المصدر نفسه، ص 530